

ظاهرة الوحدة القرآنية في الكون وجسد الإنسان وصلتها بالإعجاز العملي

د/ محمد عايش جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة

medaiche81@yahoo.fr

د/ نعيمة رواج جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

naima.rouabah@yahoo.com

الملخص:

لقد أثبت العلم الحديث وجود مظاهر الوحدة والتناسق في الكون وفي جسد الإنسان، كما أثبت كثير من العلماء أن هناك مظاهر للوحدة والتناسب في القرآن الكريم. وفي هذا نجد بعض الباحثين الذين لهم اهتمام بموضوع الوحدة القرآنية، يرون تشابها بين الوحدة الكونية التي هي من مظاهر سنن الله تعالى والوحدة القرآنية.

وتأتي أهمية هذا البحث في ربط ظاهرة الإعجاز البنائي في القرآن الكريم بظاهرة الإعجاز الكوني. أين تعكس عظمة الخالق في هذا الكون تكاملا وتناسقا يكشف وحدته، فكذلك هذا القرآن فيه تكامل وتناسق يكشف وحدته.

وجاءت إشكالية البحث منبثقة من الإعجاز الإلهي المطلق؛ فإذا كان الإعجاز القرآني يتجلى من خلال تضمين معنى إلهي في قالب لغوي يفهمه البشر، فإن الإعجاز الكوني يتجلى من خلال تضمين معنى الإعجاز الغيبي الذي لا يستوعبه البشر. فكانت الوحدة في القرآن والكون من جميع وجوهها تتسم بالإطلاقية التي هي الإعجاز الإلهي.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز القرآني، الوحدة القرآنية، الوحدة الكونية، الإعجاز البنائي.

Abstract :

Modern science has proven the existence of the phenomenon of unity and harmony in the universe and in the human body , as many scholars have proven that there are manifestations of unity and proportionality in the holy Quran. In this, we find some researchers who are interested in subject of Quranic unity see a similarity between the

universal unity, which is one of the manifestations of the laws of God Almighty, and the Quranic unity .

The importance of this research comes in linking the phenomenon of the constructive miracle in the Holy Quran with the phenomenon of the cosmic miracle, where the greatness of the creator in this universe reflects integration and harmony that reveals his unity.

The research problem stems from the absolute divine miracle. If the Quranic miracle is characterized by including a divine meaning in a linguistic template that humans understand, then the cosmic miracle is manifested by including the meaning of the unseen miracle that humans do not comprehend, so the unity in the Quran and the universe in all its aspects is characterized by absoluteness which is a divine miracle.

1- مفهوم الوحدة القرآنية:

الوحدة في اللغة: تأتي بمعنى: «التَّوْحُدُ، وَتَوَحَّدَ بِرَأْيِهِ تَفَرَّدَ بِهِ، وَالْوَحْدَةُ الْإِنْفِرَادُ»⁽¹⁾.

والوحدة القرآنية مركب وصفي، فالوحدة⁽²⁾ معناها: الاتحاد أي اتحاد عناصر الشيء الواحد وتماسكها وعدم الانفكاك والتناقض بينها حتى يكون ذلك الشيء محكم البناء، يقول أبو البقاء الكفوي (ت1094هـ): «الوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام، فالواحد بهذا المعنى لا ينقسم ولا يتجزأ وهو الواحد الحقيقي»⁽³⁾، يقول طه جابر العلواني: «الوحدة هي مقابل للكثرة والتعدد أيّاً كان نوع الكثرة، وأياً كان إطار التعدد، فكون الشيء واحداً يعني به: أنه ليس قابلاً للكثرة أو التكرار، وفي "الوحدة" معنى الثناء، فإن قيل: "فلان واحد الدنيا"، أو "وحيد عصره"، أريد به ذلك، فكأنه رغم انتمائه إلى البشر، وكونه واحداً منهم فإن له من الخصال والمزايا الحسنة ما يجعله كأنه انفصل عن جنسه الذي لا يتمتع بتلك الخصال منه غيره، فصار واحداً»⁽⁴⁾.

وأما لفظ "القرآنية" فهو صفة للوحدة نسبة إلى القرآن الكريم، وبهذا يكون مفهوم "الوحدة القرآنية"، هو اتحاد ما في القرآن من الآيات والسور حتى يكون وحدة تامة لا تتجزأ، ويفسر بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً، لا تناقض بين نصوصه، حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء. «والقرآن المجيد منفصل عن سائر الكتب المنزلة وغير المنزلة، متفوق عليها-جميعاً- بخصائصه ومزاياه، ونظمه وبلاغته وفصاحته، وهو في الوقت ذاته واحد في داخله بهذه المزايا والخصائص، تنتظم حروفه وكلماته وآياته وسوره في سلك واحد. والقرآن واحد في كونه متفرداً من تلك الحيثية، ومن حيث الأهداف والمقاصد والغايات

¹ - ابن منظور، لسان العرب دار صادر، بيروت-لبنان، (د.ط.)، (د.ت.)، مادة (وحد)، ج3، ص: 449، 450.

² - ذكر الراغب الأصفهاني في المفردات ما يأتي: «الوحدة الانفراد والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة ثم يطلق على كل موجود... فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه ما كان واحداً في الجنس مثل الإنسان، والفرس أو النوع مثل محمد وعلي، أو ما كان واحداً بالاتصال في الشخص أو الصنعة أو ما كان واحداً لعدم النظير مثل الشمس، أو ما كان واحداً لعدم التجزئة فيه مثل الذرة، أو ما كان واحداً في مبدأ العدد مثل واحد، أو في مبدأ الخط كالنقطة، والوحدة في الكل عارضة»، الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط4، 2009، ص: 931.

³ - أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط2، 1998، ص: 931.

⁴ - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006، ص: 11.

والآثار حتى ل يبدو في ذلك -كله- كما لو كان كلمة واحدة، أو جملة واحدة؛ لأن الواحد- في الحقيقة- ما لا جزء له البتة؛ فلا يقبل "التعضية" أي: التقسيم إلى أعضاء قابلة للانفصال، ولا يقبل التحويل والتغيير والتبديل فيما يتألف منه»⁽¹⁾.

ويتضح من هذا التعريف أمران، هما:

- 1- أن صورة الوحدة القرآنية تتجلى في تناسب آيات القرآن وسوره من أوله إلى آخره، بما فيه من التناسب بين المقاطع، والوحدة الموضوعية للسورة الواحدة، والوحدة الموضوعية للقرآن وما إلى ذلك.
- 2- أن الوحدة القرآنية تقتضي أن يكون القرآن وحدة لا تتجزأ، يصدق بعضه بعضا، لا تناقض بين نصوصه، كالجسد الواحد في تعاون أعضائه، فبعضها يؤثر في بعض، بحيث لا بد من ربط بعضه ببعض لفهم مراده⁽²⁾.

2- ظاهرة الوحدة الكونية:

إن الناظر لهذا الكون، يجد فيه مظاهر تدل على أنه وحدة واحدة يتناسق كل شيء مع غيره تناسقا دقيقا، إذ لا يمكن أن يستقل بعضه عن البعض الآخر؛ لأن كل شيء في هذا الكون خلقه الله بقدر، قدر يحقق هذا التناسق المطلق الجميل ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، (القمر: 29). وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾، الفرقان: 2. وقد اكتشف العلم الحديث أن هذا الكون وكل ما فيه من الأجرام والكواكب والأحياء والجمادات تتكامل وتتعاون في مسيرة هذا الكون بإذن الله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، (النمل: 88).

¹ - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ص: 11، 12.

² - ينظر: أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تقدم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط نصّه وقدم له وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسان آل سلمان، دار ابن عفان، (د.ط)، (د.ت)، ج4، ص: 267، 268.

وهناك تفاصيل العلم عن أبعاد تلك النجوم وأحجامها وكتلتها وجاذبيتها بعضها لبعض، فوجودها في هذه المواضع-دون حدوث خلل ولا اضطراب-هو الذي يعين على وحدة هذا الكون وتناسق ما فيه من الكواكب والأجرام، وبالتالي يحافظ على استمرارية هذه الحياة⁽¹⁾.

يقول الشيخ نديم الجسر في كتابه "قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن": «سبحان الله العظيم... كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة في الفضاء بهذا التوازن العجيب؟. يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد: 2) ويقول لك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ (فاطر: 41). أما العلم فيقول لك إن هذا الإمساك يحصل بقوة الجاذبية، التي شاهد العلماء آثارها، وأحصوا أطوارها، ومسّوا سطوحها ولم يسبروا أغوارها، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا، بعدُ، أسرارها... ولعمري إنه الحق ما قالوا. فالجاذبية حق، وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق. ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم آثار المصادفة العمياء يا حيران...؟ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: 67) «⁽²⁾.

فهذه الأرض مثلا، التي نعيش عليها، حجمها وكتلتها وبُعدها عن الشمس، وهذه الشمس وكتلتها ودرجة حرارتها، وجعل الأرض على محورها وسرعتها في دورانها حول نفسها وحول الشمس، وبعد القمر عن الأرض وحجمه وكتلته⁽³⁾، وتوزيع الماء واليابس على هذه الأرض، وكل ذلك يتعاون لبقاء الحياة والموجودات على الأرض⁽⁴⁾.

¹ - لمعرفة المزيد من آيات الله في الآفاق وما في عالم الفضاء من أحجام وتباعد وتناسب، ينظر: الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المكتب الإسلامي، دار العربية، ط3، 1969، ص: 297-311.

² - الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص: 311.

³ - جاء في كتاب "الإنسان بين العلم والدين" لشوقي أبو خليل حيث يقول: «يبعد القمر عن الأرض 240,000 ألف ميل، هذا البعد يعد مدروس إذا اقترب القمر وقصرت هذه المسافة تحدث الكوارث والبلايا، بسبب زيادة قوة المد والجزر، فيغمر الماء الموانئ ويكسح المدن، وتلتقي البحار بعضها ببعض، فلا ينجو من البشر أحد، وتغيّر بعد القمر عنا إلى مسافة أكبر، يغير من سرعة دوران الأرض، وبالتالي احتلال الليل والنهار فتضطرب الحياة»، شوقي أبو خليل، الإنسان بين العلم والدين، دار الفكر، دمشق، ط2، 1977، ص: 119. وينظر: الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص: 305.

⁴ - للاطلاع في تفاصيل هذه المسألة ينظر: الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص: 316-323.

ونستطيع أن نشاهد مظاهر هذا التناسق بصورة أوسع في عالم النجوم والكواكب وفي عالم الأحياء بعضها مع بعض وفي بناء الكون وفي ظروف الأرض حسبما ظهر عن طريق الأدوات الحديثة للعلم.

وأما التناسق بين النجوم والكواكب، فقد قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: 40)، فلكل نجم وكوكب مداره الخاص، لا يتجاوز في جريانه، وقد أدرك العلم الحديث أن هناك مسافات هائلة بين النجوم والكواكب، فالمسافات بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال⁽¹⁾.

والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال، وهذه المسافات على بعدها لا تُعدُّ شيئاً إذا قيست بالمسافات بين المجموعة الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء إلينا، وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية، وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة، وبعبارة أخرى إن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو أربع مائة مليون ميل⁽²⁾. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 185)، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: 6)، ويقول الخالق: ﴿سُرْبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: 53)، إنه الخالق ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد: 2)، ﴿ذُ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان: 61).

يقول الشيخ نديم الجسر: «فتعالى يا حيران ننظر، كما أمرنا الله، وعلى ضوء العلم، إلى ما في هذه السماء من شيء مخلوق بلا تفاوت، وبنیان مشيد بلا عمد، وسقف محفوظ بلا فطور، وسمك مرفوع بلا فُروج، وإلى ما هي عليه هذه السماء من سعة تستحق أن يقول عنها خالقها بكل جبروت الألوهية: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: 47)، وإلى ما في بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى، وما لهذه النجوم من (مواقع) تستحق أن تكون محلاً للقسم العظيم يُقسمه الخلاق العظيم»⁽³⁾.

¹ - ينظر: الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلوم والقرآن، ص: 305.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص: 304، 305.

³ - المرجع نفسه، ص: 304.

وقد قدر الله خالق هذا الكون هذه المسافات على هذا النحو ليحفظه بحكمته، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل يزاحم النهار في طريقه، لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً فلا يسبق أحدهما الآخر في الجريان، ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: 38 - 40).

يقول "كريسي موريسون" في دقة ترتيب هذه الكواكب ودقة تقدير مسافتها بحيث تؤكد هذه الدقة وحدة هذا الكون وتعاون أجزائه: «إن الشمس التي جعلها الله مصدراً للضوء والدفء على الأرض، تبلغ درجة حرارة سطحها 12,000 درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفي لأن تمدنا هذه "النار الهائلة" بالدفء الكافي، لا بأكثر منه. وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب، وكان تغييرها في خلال ملايين السنين من القلة، بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها، لو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة، فإن كل نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً. والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلاً في الثانية. ولو أن معدل دوراتها كان مثلاً ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية، فإن بُعدنا عن الشمس أو قُرْبنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا»⁽¹⁾.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

أما التناسق في عالم الحيوانات فقد اكتُشِفَ بأن هناك توزناً كاملاً بين عدد الجوارح والحشرات والميكروبات، ومن ثم يتم بقاء هذه الحياة في هذا الكون العجيب. فالجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد، وقليلة البيض وقليلة التفريخ، وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار. ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة الفراخ، لقضت على صغار الطيور، ولا اختل توازن هذه الحياة، وكذا الذبابة تبيض ملايين البويضات ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين، ولو كانت تعيش بضعة أعوام مع هذه النسبة من البويضات لغطى الذباب وجه الأرض، «وإن الحشرات ليست لها رثتان كما للإنسان، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب، وحيث تنمو الحشرات وتكبر، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها، ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً، وبفضل تكوين الحشرات وطريقة تنفسها، لم يكن

¹ - كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة: محمود صالح الفلكي، دار وحي القلم، دمشق، ط1، 2012، ص: 32.

في الإمكان وجود حشرة ضخمة، وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها، ومنعها من السيطرة على العالم، ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي، لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض»⁽¹⁾.

وهذا التوازن العجيب المذهل الدقيق، ليس فقط في تكوين الأرض ووضعها، إنما « شاءت الإرادة الإلهية أن تجعل الأرض مقرا للإنسان، ولهذا فقد سخر الله الأرض وما فيها وعليها لخدمة الإنسان خاصة، والحياة عامة. ولقد اكتشف العلم الحديث أن ملاءمة كوكب الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة من التنظيمات والتوافقات الرائعة التي لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية، بل تجعلنا نتلمس قدرة الله وعظمته وآياته ... وصدق الله العظيم بقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: 20)، وباستعراض بعض الحقائق الكونية في خلق الأرض، فإننا سوف نجد البراهين الساطعة القوية على التوجيه الإلهي المقصود وراء كل شيء»⁽²⁾.

وأما التناسق في بناء الكون وفي ظروف الأرض فنقف هنا مع العلم ونقول بأن كون الطبيعة على هذا الشكل بلغ غاية الدقة بحيث لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين ولما أمكن وجود حياة النبات. ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية. ولو أن نسبة الأوكسجين أكثر من 21 في المائة إلى 50 في المائة مثلاً، لاحتزقت هذه الدنيا وما فيها أو لو أن نسبة الأوكسجين أقل من 21 في المائة إلى 10 في المائة، لتجمدت هذه الحياة كلها⁽³⁾.

هذه هي سنة الله في الكون، فنحن نشاهد بأعيننا أن هذا الكون وكل ما فيه من الأشياء والأحوال والأحداث بمثابة وحدة واحدة لا خلل فيها ولا تفكك، كلها تسير في تآلف وتكامل بقدرة الله تعالى. بل إن دوران الأرض نفسه مرتبط تمام الارتباط مع تصميم هذا الكون، وله علاقة لا تنفك بحياة الإنسان. فلو لا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها، ولو دارت الأرض حول

¹ - كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ص: 114.

² - منصور محمد حسب النبي، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1991، ص: 40.

³ - ينظر: الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص: 343. وينظر: كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ص:

32، 33. وينظر: منصور محمد حسب النبي، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 192، 193.

نفسها أسرع مما تدور لتناثر المنازل وتفككت الأرض وتناثرت هي الأخرى في الفضاء، ولو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر وبرد. فسرعة دوران الأرض حول نفسها هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم، هي سرعة توافق ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع ما فيها⁽¹⁾.

هذه سنة الله في الكون، فنحن نشاهد بأعيننا أن هذا الكون وكل ما فيه من الأشياء والأحوال والأحداث بمثابة وحدة واحدة لا خلل فيها ولا تفكك، وكلها تسير في تآلف وتكامل بقدرة الله تعالى.

3- ظاهرة الوحدة العضوية في جسد الإنسان:

تتجلى ظاهرة هذه الوحدة في تركيب جسد الإنسان، إذ إن الله خلقه في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. فكل عضو يرتبط مع غيره من الأعضاء، وكل جهاز فيه يتعاون مع غيره دون تضارب ولا تنازع ﴿سُنُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:53)، ويقول تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:7، 8، 9).

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه يدرك أسرار تكوينه الجسماني وتكوينه الروحي، ويدرك أن أعضاء هذا الجسد موزعة حسب التنظيم الدقيق، فكل منها في محلّه، وكل منها يؤدي وظيفته التي خلق لها في عملية الهضم والامتصاص، وفي علمية التنفس والاحتراق، وفي دورة الدم في القلب والعروق وفي الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، وفي الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه. يقول الشيخ ندیم الجسر: «عن أي آيات الله تريد أن أحدثك يا حيران...؟ كلُّ ما في جسمك يدل على الله، لأن كل ما خلق فيك بديع في تركيبه مُحكم في ترتيبه، رائع في إتقانه دقيق في اتزان، متناسب في حركاته متوافق في غاياته، سواء في ذلك ما تراه بعينك من أقل الأعضاء شأنًا وأثراً كالشعرة والقلامه إلى أعظمها قدرًا وخطراً كالعين والأذن والقلب والكبد والمعدة والأمعاء واللسان والشفنتين، وما لا تراه بعينك المجردة من ملايين الخلايا والأعصاب التي هي أعجب بأسرارها وأغرب، وأبدع وأروع؛ ولكني يا حيران أحصر لك القول

¹ - ينظر: كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ص: 31، 32. وينظر: ينظر: الشيخ ندیم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم

والقرآن، ص: 320، 321.

حصراً في آيات الله التي اختارها هو، جلّت حكمته، وأكثر من ذكرها في القرآن ليقيم البرهان القاطع للناس على وجوده وقدرته وحكمته، من غير أن يتعتّتهم بذكر أعضاء ما كانوا يعرفون أسمائها فضلاً عن وظائفها»⁽¹⁾.

وهناك مؤلفات كثيرة تتحدث عن كمال هذا التكوين الإنساني العضوي وتآلفه وتناسقه مما يدل على أن هذا الجسد الإنساني وحدة متناسقة، يقول "كريسي موريسون" في كيفية التعاون بين أعضاء الجسد أثناء القيام بعملية الهضم ما نصه: «ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيميائي، وإلى الطعام الذي نأكله، على أنه مواد عُقْلٌ، فإننا ندرك تَوّاً أنه عمليةٌ عجيبةٌ، إذ يهضم تقريباً كل شيء يُؤكل ما عدا المعدة نفسها.

فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعاً من الطعام كمادّة عُقْلٍ دون أي مراعاة للعمل نفسه، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له! فنحن نأكل شرائح اللحم والكربن والحنطة والسّمك المقلّي، وندفعها بأي قدر من الماء. ومن بين هذا الخليط، تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيميائية، دون مراعاةٍ للفضلات، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاءً لمختلف الخلايا، وتختار أداة الهضم الجير، والكبريت، واليود والحديد، وكلّ المواد الأخرى الضرورية وتُعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة، ومستعدة لمواجهة كلّ ضرورة» ويضيف كريسّي موريسون شارحاً: «وهي تخزن الدّهن والمواد الاحتياطية الأخرى، للقاء كل طارئة، مثل الجوع، وتُفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليقه. إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في المعمل الكيميائي، بصرف النظر كلية تقريباً عما تناوله، معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية "أوتوماتيكية" لإبقائنا على الحياة. وحين تتحلل هذه الأطعمة، وتجهز من جديد، تقدم باستمرار إلى خلية من بين بلايين الخلايا، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً، وألا يودع سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان كما تتلقاها الخلية المختصة.

¹ - الشيخ نسيم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص: 401.

فها هنا إذن معمل كيميائي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان، وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام»⁽¹⁾. وهكذا، لا حظنا بعض مظاهر الوحدة - التي هي من السنن الإلهية - في الكون وفي جسد الإنسان.

4- الوحدة القرآنية والإعجاز البنائي للقرآن الكريم:

لقد ذكر المحققون من العلماء أنّ من وجوه إعجاز القرآن تآلف كلماته وجُمَله في آياته وتناسب آياته في سوره؛ فالسورة القرآنية « تُشكّل وحدة مترابطة متناسقة متينة التركيب وبالوقت نفسه نجد بين سور القرآن جميعاً رابطاً عاماً وصلةً تصلها فإذا بالقرآن يتراءى وحدة واحدة عظيمة البنيان والانسجام»⁽²⁾، إنه محكم البناء، متلائم الأجزاء، يقول منذر عياشي: «القرآن نصٌّ مفارق في وجوده، على صعيد الحدث، لكل أنواع النصوص الأخرى، وما كان قاطعاً رحمٍ وصلةً معها، إلاّ لأنّه يقوم في وجوده على غير ما يقوم به عالم الأشياء، وغير ما يقوم به عالم النصوص، وتكمن سمة هذه المفارقة في كونه نصّاً لغوياً لا تتطلب قراءته استحضاراً مسبقاً لنموذج المعمار، كما في عالم الأشياء، ولا استحضاراً مسبقاً لنموذج لساني لبنية الجمل، كما في عالم النصوص واللغات، وأما لمّ كان ذلك، فلاّنه سيميائي الوجود وعلاماتي الحضور، ولذا، فهو متعلق نموذجاً وتحققاً لغوياً في آنية لا تسمح بأي تفكيك. ولقد نرى هذا التعالق قد بلغ درجة من التلازم لا يمكن أن نرى معها أنّ نموذجه سابق في وجوده على وجود تحققه، كما تقدم اللغات نفسها في تحققها»⁽³⁾.

وهذا يعني «أنّ القرآن من حيث هو نص لغوي، موجود معاً: نموذجاً وتحققاً بأن واحد. وأنّه بكليّته الوجودية هذه، يُشكّل لغة نصّ مفارق للغة البشر، وأنّه يُشكّل بهذه المفارقة نسقاً يتماسك فيه التّمودج والتّحقق حدّ الاندغام، بحيث إذا انفصلا، على نحو ما هو معهود في نصوص اللغات جميعاً، فسَدَتْ هذه الكليّة الوجودية، ومن هنا، فإنّ القرآن بهذه الخصوصية، مفارق ولا يدخل ضمن صفوفه الأنساق الأخرى

¹ - كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ص: 109، 110.

² - مصطفى محمد زكي الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن، ط1، 1982، ص: 36.

³ - منذر عياشي، القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط1، 2015م، ص: 110، 111.

لغة النصوص»⁽¹⁾، فالقرآن الكريم بما هو نص إلهي وله لغة خاصة تسمو على لغة العرب التي نزل بلسانها فهو أثرى النصوص جميعاً، وهو أمر يجب أن نعيه لإثبات مخالفة القرآن لكلام البشر⁽²⁾.

ورد في القرآن الكريم آيات تدل على أن القرآن وحدة واحدة منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)، وقوله تعالى: ﴿الرَّكِيبَ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر: 23).

وقد استدل صلاح الخالدي في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)، في إثبات الوحدة الموضوعية للقرآن حيث قال: «هذه الآية تقرر حقيقة جازمة، وتسجل ظاهرة ملموسة في القرآن الكريم، وهي حقيقة الوحدة الموضوعية فيه، وظاهرة التناسق المطلق الشامل في أسلوبه، وتعبيره وأساليب العرض الفني وطرائق الأداء الفنية، وفي منهج القرآن في التربية والتشريع والتوجيه والبناء وفي المناهج التي يقررها للحياة البشرية الكريمة»⁽³⁾.

وأكد كثير من العلماء على أن القرآن الكريم مُعجز في ترابطه بعضه ببعض، فكل سورة منه مرتبطة بالسورة التي قبلها والسورة التي بعدها، وكل آية مترابطة مع الآية التي قبلها والآية التي بعدها، وهو مترابط في معانيه وموضوعاته، بحيث يعطي عن كل موضوع منها تكاملاً، على الرغم من معالجته في أكثر من موضع وأكثر من سورة.

وقد استدل العلماء بقوله تعالى: ﴿الرَّكِيبَ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، على أن القرآن وحدة بنائية واحدة. قال الزمخشري (ت538هـ) في تفسيره لهذه الآية: ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾

¹ -المرجع نفسه، ص: 111.

² -«يختص النص القرآني عن غيره من النصوص بكونه يُنسب إلى لغة البشر دون أن يتقيد بنسبيتها، فلغة القرآن وبنائه التركيبي والبلاغي له صفة الإطلاق بحيث لا يمكن أن يحصر فهمه بتاريخية معينة سواء كانت لغوية أو اجتماعية أو ثقافية، دون أن ينفي ذلك أن الإحاطة بمعطيات تاريخ عصر النزول شرط معرفي للفهم، فإطلاق المعنى القرآني ينبع من صفة الإلهي، وهذه الإطلاقية لا يمكن مقارنتها من قبل البشر إلا من خلال تنزيلها في قوانين التواصل البشري (اللغة)، فالإعجاز القرآني يتجلى من خلال تضمين معنى إلهي في قالب لغوي يفهمه البشر، فكانت بنائية اللغة القرآنية من جميع وجوهها تتسم بالإطلاقية التي هي صفة الإلهي مصدر النص»، عبد الرحمن حللي، المدخل إلى دراسة المفاهيم القرآنية دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، حلب-سوريا، ط1، 2011م، ص: 9.

³ - صلاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار المنارة، جدة-السعودية، ط1، 1986، ص: 152.

نُظِّمَتْ نظاماً رصيناً مُحْكَمًا لا يقع فيه نُقْصٌ ولا خللٌ كالبناء المحكم المرصف»⁽¹⁾، وقال سيد قطب: «﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم، متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد»⁽²⁾.

ويشير طه جابر العلواني إلى ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، «فالإحكام -هنا- من إحكام البناء بحيث يتمتع أي اختراق له لمتانته وقوته... وعلى هذا يكون المراد بالمركب (الوحدة البنائية) للقرآن: أن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه أو التجزئة في آياته، أو التعضية بحيث بعضه يرفض بعضه الآخر، كما لا يقبل التناقض أو التعارض وغيرها من عيوب الكلام فهو بمثابة الكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره وأجزاؤه وأحزابه...»⁽³⁾.

وأما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر: 23). فيفهم منه أنه لا يوجد كلام أحسن من كلام الله، ومن مظاهر الحُسن في الكلام التناسق بين كلماته وعباراته، يقول الزركشي: (ت794هـ): «من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لثلا يكون منقطعاً»⁽⁴⁾، وقال الإمام أبو زهرة: «إن جمال الكلام ليس في توالي ألفاظه في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»⁽⁵⁾. ومما يؤكد هذا المعنى في قوله ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ يقول الإمام ابن عطية: «﴿مُتَشَابِهًا﴾ معناه مستويا لا تناقض فيه ولا تدافع بل يشبه بعضه بعضا في رصانة اللفظ ووثاقة البراهين وشرف المعاني، إذ هي اليقين في العقائد في الله وصفاته وأفعاله وشرعه»⁽⁶⁾.

¹ -الزخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998، ج3، ص: 181.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003، ج4، ص: 1851.

³ - طه جابر العلواني، الوحدة البنائية في القرآن المجيد، ص: 10، 11.

⁴ - بدر الدين الزكشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، وزملائه، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1990، ج1، ص: 132.

⁵ - محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، (د.ط)، 1970، ص: 99.

⁶ - ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مؤسسة دار العلوم، ط1، 1407هـ، ج12، ص: 526.

وقد تعرض كثير من العلماء الدارسين لكشف وجوه الترابط بين الآيات والسور، بل إن بعضهم قد أفرد هذا العلم بالتصنيف، فاستخرجوا المناسبات بين آيات القرآن وسوره، وقد عقد كل من الزركشي والسيوطي والبقاعي بابا خاصا بالمناسبات بين الآيات وبين السور، ليثبتوا أن القرآن الكريم كله وحدة واحدة يفسر بعضه بعضا، فالزركشي يُحدِّد أمطاً عدَّة من وجوه المناسبة التي يمكن أن يجدها الإنسان في القرآن بقوله: «المناسبة علم شريف تُحرِّز به العقول ويُعرف به قدر القائل فيما يقول... وفائدته جعل أجزاء الكلام، بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيُتَوَي بذلك الارتباط، ويصير التَّأليف حاله حال البناء المحكَّم، المتلائم الأجزاء»⁽¹⁾.

ويؤكد البقاعي أهمية معرفة أوجه الترابط في القرآن، فهذا «يكشف أن للإعجاز طريقين: إحداهما نَظْمٌ كلُّ جُملة على حياها بحسب التركيب، والثانية- وهي الأهم- نَظْمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب»⁽²⁾، ويضيف قائلاً: «وبه يتبيَّن أيضاً أسرار القصص المكرَّرات، وأنَّ كلَّ سورة أُعيدت فيها قصة فَلَمَعْنَى أَدْعَى في تلك السُّورة، استدَلَّ عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيَقْت له في السُّورة السابقة...»⁽³⁾.

وبخصوص بناء السورة وتعايق موضوعاتها خدمة لتحقيق مَقْصدها العام يقول البقاعي: «فإنَّ كل سورة لها مقصد واحد يُدَارُ عليها أوَّلها وآخرها، ويُستدلَّ عليه فيها، فتترتَّب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدَلَّ عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلمَّ جرأ، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتداءً، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النَّظر إليه على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع... وآخِر السُّورة قد وصل أوَّلها كما لاحم انتهاؤها كما بَعْدَهَا، وعانقَ ابتداءؤها ما قَبْلَهَا، فصارت كلُّ سورة دائرة كبرى مُشتملة على دوائر الآيات العُرِّ، البديعة النَّظْم العجيبة الضَّم...»⁽⁴⁾.

¹ - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 36-37.

² - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص: 10، 11.

³ - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص: 14.

⁴ - برهان الدين البقاعي، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض-الرياض-المملكة العربية السعودية، ط1، 1987، ج1، ص: 149.

وعلى هذا التّهج سار السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور)، وفي ذكره لأنواع المناسبات تفصيلاً بعض السور لِمَا أُجْمِلَ في بعضها يقول في ذكره لمناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة: «قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات: أحدهما: أنّ القاعدة التي استقرأتها من القرآن: كلُّ سورة تُفصّل لإجمال ما قبلها، وشرّح له وإطناب لإيجازه، وقد استمرّ ذلك في غالب سور القرآن طويلاً وقصيراً، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة»⁽¹⁾.

ولو تجاوزنا العصور السابقة إلى أقوال المحدثين، لكي نُقارِبَ مدلولاتهم في معاني المعمار والبناء فإننا نجد وصفاً دقيقاً للسمات الهندسية في السورة القرآنية؛ إذ تُعدّ السورة في تركيب مقاطعها وآياتها كالبنيان الواحد المركّب من بُنيّاتٍ مترابطة ومتماسكة إلى درجة التلاحم، فقد صنفوا مؤلفات يؤكدون فيها هذه الوحدة القرآنية، فقد ألف محمود البستاني "التفسير البنائي للقرآن الكريم"، كما اعتنى سيد قطب بالوحدة القرآنية لسور القرآن الكريم في تفسيره "في ظلال القرآن"، وقدم الشيخ سعيد حوى نظريته في الوحدة القرآنية في كتابه "الأساس في التفسير"، ثم تتالت الكتابات خاصة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، منها: الوحدة الموضوعية في القرآن لمحمود حجازي، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني لأحمد جمال العمري، ومباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم.

يؤكد "عبد الله دراز" في كتابه "النبا العظيم" على هذا التلاحم الذي تفتنّ في التّدليل على أنّ السور القرآنية كلّ لا يتجزأ، ووحدة كلية تحوي من المعاني والمباني الجليلة فقال: «إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، أوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي تولدت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكليّة على أُسس وأصول، وأقيم على كلّ أصل منها شُعَبٌ وفصول، وامتدّت من كل شعبة منها فروع تُقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية بنيان واحد، وقد وضع رسمه، مرّة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والاتحام، وكل ذلك من غير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما

¹ - جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1986، ص: 65.

هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يُريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً..»⁽¹⁾.

فهذا كله إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن القرآن كله من أول "الفاحة" إلى آخر "الناس" وحدة واحدة، تتكامل آياته، وتتناسق سوره - طويلة كانت أم قصيرة، مكية كانت أم مدنية - يأخذ بعضها بأعناق بعض،: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1)، فهو لا شك قوي البناء، محكم الترتيب، ومن ثم تأتي آياته متناسبة، لا تنافر بينها، فالعالمُ باللغة والمتقن في علوم البلاغة يجد أنه لا يوجد حرف في القرآن إلا في مكانه، ولا كلمة فيه إلا في محلها ولا جملة فيه إلا مرتبطة مع ما قبلها وما بعدها، بحيث لو نُقص منه حرف أو زيد فيه حرف لاختلت بلاغته. ذلك لأنه كلام الله العليم الحكيم، الذي لا يدخله خلل ولا نقصان، وهو فوق مستوى كلام البشر فصاحة وبلاغة.

ويقول الشيخ علي الطنطاوي، -وهو يتحدث عن وحدة هذا التركيب القرآني- قائلاً: «كتاب أمر الله نبيه أن يتحدى به الناس جميعاً، فتحدى الإنس والجن، أن يأتوا بعشر سور من أمثال سوره، وأن يأتوا بسورة واحدة، فعجزوا! وهذا التحدي قائم إلى الآن، والعجز مستمر إلى الآن. إعجازه ثابت، ولكن لا تبحث كما يبحث علماء البلاغة، عن موطن الإعجاز، فإن موطن الإعجاز ليس في ألفاظه وحدها، ولا في أخباره عن المغيبات فقط، ولا في أمر واحد من الأمور التي ادّعوا فيها، بل فيه كله مجتمعا»⁽²⁾.

5- البنائية القرآنية والبنائية الكونية:

تقول الباحثة فاطمة الزهراء الناصري: «بعد أن اكتشف العقل البشري أن الكون بنية عضوية موحدة، بمرته هذه الوحدة البنائية في الكون وأعجب بمآلاتها المعرفية غير المحددة فطفق يصبغ بها الكثير من الحقول المعرفية، وهذه الوحدة الكونية هي معادل لوحدة أخرى على مستوى النص الإلهي؛ إذ الأول خلقه والثاني كلامه، وكل شيء يصطبغ بصبغة مصدره ومنبعه؛ فالله الواحد الأحد لا يصدر عنه التناقض أو ما

¹ - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة-قطر، ط1، 1985، ص: 155.

² - علي الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة- السعودية، ط1، 1989، ص: 182، 183.

يتصف بالتضارب، ولذلك فالنص القرآني نص ذو بنية واحدة على مستوى الشكل والمضمون؛ أي لغويا ومعرفيا، وكذلك الكون المادي ذو بنية واحدة مظهرها وضمناها»⁽¹⁾.

وإنَّ النَّاطِرَ لهذا الكون، يجد فيه مظاهر تدل على أنه وحدة واحدة حيث يتناسق كل شيء فيه مع غيره تناسقا دقيقا، فلا ينفك بعضها عن الآخر؛ «فالقرآن في بنائته الحرفية يماثل البنائية الكونية بحيث إذا تفلت نجم عن موقعه اختلَّ النظام الكوني كلّه، ولهذا قابل الله بين البنائية الحرفية للقرآن و (مواقع) النجوم، فلم يُقسِم -سبحانه- بالنَّجم ولكنّه أقسَم بمواقعها في سياق تعريفه بخصائص القرآن البنائية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: 75، 80)، فليس من أحد يستطيع ضبط الصياغة القرآنية على مستوى الحرف المماثل لصياغة الكون غير الله فلكل حرف وظيفته (الألسنية البنيوية) في الإنشاء القرآني الذي ليس هو مجرد بلاغة فقط، فالاستخدام الإلهي للمادة اللغوية ولأبي مادة في الكون يختلف نوعياً عن الاستخدام البشري مع وحدة خصائص المادة»⁽²⁾.

إن المتأمل في خلق الله جميعا يؤمن بأن هذا الكون نسق من العلامات الدالة على قدرته عز وجل «إن الكون نظام هادف نابض بالحياة مفعم بالمعنى، حيث إن كل أجزائه تكوّن بناء عضوياً تتفاعل أجزاؤه بطرق لايزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، أما المسلمون فهم يعلمون أن الخليقة كيان عضوي، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما، حتى لو كانوا لا يعرفونها، وهذا العلم ثمرة لإيمانهم.

إن الآيات من القرآن التي تفيد بنائية الكون وغائيته وملايسة الحكمة لكل مظاهره ودقائقه آيات كثيرة يتعذر حصرها، منها قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات: 27-33)»⁽³⁾.

¹ - فاطمة الزهراء الناصري ، من محددات نظرية الترتيل في القرآن الكريم: الوحدة الموضوعية للسورة القرآني، مجلة الترتيل في القرآن المجيد منهج وبناء، الرابطة المحمدية للعلماء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، العدد1، يونيو 2013، ص: 77، 78.

² -محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية: أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2003، ص: 96، 97.

³ - أحمد عبادي ، نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد منهج وبناء، ع1، ص: 23، 24.

ويضيف محمد عبادي «إنَّ الوحدة البنائية في الكون هي التي مكَّنت العقل البشري - بعد اكتشافها - من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصلح على تسميتها: علوم التَّسخير، وهي علوم قد تمَّ تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي مددًا قويًا، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والوظيفة»⁽¹⁾، هذا يعني أنَّ ظاهرة الوحدة الكونية تؤكد على أنَّ سُنَّة الله في هذا الوجود تقوم على أساس الوحدة والتعاون بين أجزائه.

وصَفَ الله - تعالى - خلقه بأنَّه في غاية الإحكام، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: 88)، فكلَّ شيء في الكون وُضِع في محله اللائق به، وله دور في بناء الكون المتناسق، وكذا كلَّ عضو في جسد الإنسان يتعاون ويتكامل مع غيره كوحدة واحدة متناسقة محكمة التَّدقيق، وقد وصف "سبحانه" أيضاً أنَّ كتابه محكم البناء: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1). وقد قال سيد قطب: «﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إمامة وكل إشارة ذات هدف معلوم، متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد»⁽²⁾.

الخاتمة:

القرآن الكريم فيه القابلية لأن يفسر الحياة والأحياء للناس، وأن يظهر لهم السنن والحقائق، ولكن بحسب قوة المستمد الذي يستمد من القرآن المجيد، وهو استمداد له آدابه وله قواعده؛ منها الآداب النفسية، والأسس العلمية، وكذلك صلاح وشفاء الإقبال، ففي مجال التعاطي مع هذا الكون الذي نجد أن الإنسان يُجري حواراً مع هذا الكون من خلال طرح الأسئلة عليه، وتلقِّي الأجوبة منه، وتحويل هذه الأجوبة إلى أسئلة مرة أخرى، وهو حوار يقوم على الإيمان الجازم، بأن هذا الكون قد بني وفق نسق، وأن فيه قوانين تحكمه، وأنه ليس فوضى، وأنه مبني على علل، وأنه منظم وراءه مقاصداً، وحكما يسميها البعض حكمة الطبيعة، ويسميها أهل الإيمان بحكمة الله عز وجل الذي أودع هذه المقاصد، وأودع هذه الحكم في خلقه وفي هذا الكون.

¹ - المرجع نفسه، ص: 24.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص: 1851.

-إن الوحدة القرآنية من أعظم مظاهر الإعجاز والجمال في القرآن الكريم، إن القرآن الكريم معجز بلغته وبنظمه ومعجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، وأن ما يقوم بين السور وآياته وكلماته من الصلات المتنوعة، والتناسب البارع، والارتباط المحكم، والائتلاف البديع ينتهي إلى حد الإعجاز الأكبر، وإن مظاهر الوحدة القرآنية لا تنتهي، ولا يحيط بها إلا الله جل جلاله، وكلما نظر المتدبر في هذا الكتاب اكتشف أوجها جديدة وإعجاز لا ينتهي.

-إن ظاهرة الوحدة الكونية في الكون والوحدة العضوية في جسد الإنسان تؤكد على أن سنة الله في هذا الوجود تقوم على أساس الوحدة والتعاون الدقيق بين أجزائه.

-كما أن الوحدة القرآنية تؤكد من جانب آخر على حقيقة هذه السنة الإلهية. فتلك بمثابة آيات الله المشهودة، وهذه بمثابة آيات الله المتلوة، ومن ثم يمكننا أن نجد وجود التشابه بين الوحدة القرآنية والوحدة الكونية.

المصادر والمراجع:

- 1- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مؤسسة دار العلوم، ط1، 1407هـ.
- 2- ابن منظور، لسان العرب دار صادر، بيروت-لبنان، (د.ط)، (د.ت).
- 3- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ضبط نصّه وقدم له وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسان آل سلمان، دار ابن عفان، (د.ط)، (د.ت).
- 4- أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط2، 1998.
- 5- أحمد عبادي، نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد منهج وبناء، مطبعة المعرفة الجديدة، الرباط، ع1، يونيو 2013.
- 6- بدر الدين الزكشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، وزملائه، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1990.

- 7- برهان الدين البقاعي، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط1، 1987.
- 8- برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت).
- 9- جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1986.
- 10- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003.
- 11- شوقي أبو خليل، الإنسان بين العلم والدين، دار الفكر، دمشق، ط2، 1977.
- 12- صلاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار المنارة، جدة-السعودية، ط1، 1986.
- 13- طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006.
- 14- عبد الرحمن حللي، المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، حلب-سوريا، ط1، 2011م.
- 15- علي الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة-السعودية، ط1، 1989.
- 16- فاطمة الزهراء الناصري، من محددات نظرية الترتيل في القرآن الكريم: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مجلة الترتيل في القرآن المجيد منهج وبناء، الرابطة المحمدية للعلماء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ع1، يونيو 2013.
- 17- كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان، ترجمة: محمود صالح الفلكي، دار وحي القلم، دمشق، ط1، 2012.
- 18- محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، (د.ط)، 1970.
- 19- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدوحة-قطر، ط1، 1985.
- 20- مصطفى محمد زكي الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن، ط1، 1982.

- 21- منصور محمد حسب النبي، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1991.
- 22- محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية: أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2003.
- 23- منذر عياشي، القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط1، 2015.
- 24- نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، المكتب الإسلامي، دار العربية، ط3، 1969.
- 25- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط4، 2009.
- 26- الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998.